مقدمـــة

اشتد الهجوم فى الغرب على الإسلام والمسلمين بعد الهجوم على مركز التجارة العالمى فى نيويـورك، ومبنـى البنتـاجون فـى واشـنطن يـوم ١١ سـبتمبر ٢٠٠١، وأصبح الهجوم على الإسلام مـادة يومـيـة فـى الصحافـة والتلفزيـون، وكـل مسـلم موضع اتهام فى الولايات المتحدة ودول أوربا بمجرد اكتشاف أنه مسلم.

ومع أن تصريحات القادة والزعماء فى الغرب قد أكدت أن الحرب التى تشـنها الولايات المتحدة وحلفاؤها على دول إسلامية هى حـرب علـى الإرهـاب وليسـت علـى الإسـلام إلا أن فلتـات لسـان هـؤلاء القـادة كشـفت غـير ذلـك ممـا تنطــوى عليه الصدور.

وفى عالمنا العربى والإسلامى يعلن كثيرون أنـه ليـس هنـاك عـداء مـن الغـرب للإسلام أو المسلمين، وأن ما يقال عندنا عن هذا العداء ليس إلا تعبيرًا عن الشعور بالنقص أمام الحضارة الغربية المتفوقة، أو تعبيرًا عن الإحبـاط فـى نفوسـنا لأننـا نعتبر أنفسنا أصحاب تاريخ مجيد ونستحق مكانا فى العالم أفضل مما نحن فيه، ولكننا نعانى من الشعور بـالنقص لأننـا نجـد أنفسـنا متخلفـين، وعـاجزين عـن الوصول إلى المكان اللائق بنا.

وهناك تفسيرات كثيرة يرددها من ينكرون، أو يرفضون الحقيقة وهــى وجـود تيار فكرى وثقافى فى الغرب رافض لعقائد ومبـادئ وأفكـار المسـلمين، ويـرى أن الإسلام هو السبب فى تخلف المسلمين، وهذا التيـار قديـم ولـه جـذور تاريخيـة يمكن أن نجدها منذ بداية ظهور الإسلام، وقد تبلورت فى السنوات الأخيرة فــى نظرية البروفيسور فرانسيس فوكوياما عن «نهاية التاريخ»، ونظرية البروفيسور صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات، ومؤدى النظريتين حتميــة الصدام بـين الإسلام والغرب.

وعندما ظهرت هاتان النظريتان فى الولايات المتحدة لم يلتفت إليهما أحد من مفكرى العالم الإسلامى، وكان الظن أنهما مجرد اجتهادات شخصية أو جنوح بالخيال، بعد أن شعر مفكرو الغرب بأن انتهاء الصراع ضد الاتحاد السوفيتى والأيدلوجية الشيوعية قد ترك فراغا فكريا وسياسيا، ربما يؤدى عدم وجود عدو للغرب إلى انتهاء الحاجة إلى الحشود العسكرية والترسانات المكدسة بالأسلحة والمصانع العملاقة ومراكز البحوث وعشرات الآلاف من العلماء، والأرقام الفلكيةللأموال التى تُنفق على الجيوش والأسلحة فى الغرب، مادام العدو الأكبر قد زال من الوجود، ولم يعد فى العالم سوى قوة وحيدة هى الغرب تقودها الولايات المتحدة.

كان هذا هو الظن فى البداية، ولكن لم تكد تمضى فترة قصيرة حتى أصبحت نظرية صراع الحضارات والثقافات تتردد فى كل مناسبة، وعلى كل لسان، وفى كل مستوى من مستويات القيادة السياسية والعسكرية فى الغرب. وكانت الصدمة الأولى عندما صدر قرار من حلف الأطلنطى - وهو حلف عسكرى أساسًا - باعتبار الإسلام هو العدو للغرب، بعد انتهاء الاتحاد السوفيتى، ثم توالى صدور تصريحات وبيانات على ألسنة الزعماء والقادة فى جميع دول الغرب تؤكد هذا المعنى، وأصبحت نظرية صراع الحضارات من المُسلَّمات التى فرغ الغرب من مناقشتها.. على رغم كل ما صدر من العالم الإسلامى من إنكار واستنكار لهذه النظرية، وتكرار التعبير عن حقيقة الإسلام كدين للتسامح والتعاون بين البشر، وأنه لا يؤمن بالصراع بين الحضارات أو الثقافات المختلفة، ويؤمن بالتعاون فيما بينها.

ولم يعد أمر العداء للإسلام فى الغرب خافيا على أحد فى العالم الإسلامى، بعد أن أعلن وزير الأوقاف الدكتور محمود حمدى زقزوق أن فى الغرب أكثر من ٦٠ ألف كتاب للهجوم على الإسلام. وأعتقد أن الذين ينكرون وجود هذا العداء هم فى الحقيقة يتهربون من مواجهة الحقيقة لأنها تفرض عليهم واجب العمل للدفاع عن الإسلام.

ولابد أن نسجل بعض الملاحظات التى لابد منها قبل قراءة هذا الكتاب:

الأولى: أن هناك محاولات سياسية لتفكيك العالم الإسلامى، وتفكيك العقيدة الإسلامية، وتغيير مناهج تدريس الدين الإسلامى، وتغيير المؤسسات الإسلامية، تحت شعار إدماج الإسلام فى العولمة. والحقيقة أن هذا العمل يتم لإدماج المسلمين فى النظام العالمى الذى تقوده الولايات المتحدة، وتفرض فيه على دول العالم إرادتها، وتتصرف على أنها هى القانون، وأنها هى الوحيدة التى تمتلك الصواب، وعلى الجميع أن يقبلوا الهيمنة الأمريكية عن طيب خاطر.

الثانية: أن هدف السيطرة على أرض وأسواق وثروات الدول الإسلامية هدف سياسى، البعض يصرح به فى الغرب دون مواربة، والبعض الآخر يخفيه وراء شعارات ومبادئ وأفكار براقة زائفة مثل إكراه العالم الإسلامى على التغيير، وفرض النظام الديمقراطى الغربى والليبرالية الاقتصادية عليه بالقوة، وكذلك فرض أسلوب الحياة الأمريكى على العالم الإسلامى تحقيقا لهدف «أمركة» العالم، أى تحويل العالم إلى عالم أمريكى، فكرا وسلوكا بما فى ذلك الحرية الفردية التى تصل إلى الحرية الجنسية، وتفكيك نظام الأسرة المتماسكة فى العالم الإسلامى.

إن الذين يعملون فى الغرب بكل الطرق فى صناعة العداء للإسلام كثيرون، ولكن على الجانب الآخر فى الغرب مفكرون لهم قيمة علمية وفكرية يعملون على إنصاف الإسلام والدفاع عنه، ولكن أصحاب الصوت العالى هم صناع العداء. ولقد فكرت أن أجعل هذا الكتاب قسمين، الأول لفكر صناعة العداء، والثانى لفكر الانصاف للإسلام فى الغرب، ولكنى وجدت أن ذلك سيجعل حجم الكتاب أكبر مما يمكن احتماله، ولذلك فضلت أن أخصص هذا الكتاب للفئة الأولى، وأن أخصص كتابًا آخر للفئة الثانية.

كذلك فقد حرصت على أن تكون مادة هذا الكتاب مقصورة على كتابات وأفكار وأقوال مفكرين وقادة سياسيين من الغرب، ولم أعتمد على مصادر أو كتابات المفكرين العرب والمسلمين، لأنى حرصت على أن نعرف ما فى عقولهم ونفوسهم ونترك التحليل والتعليق بعد ذلك لكل من يريد.

وإن كان فى الغرب من يرى أن الإرهاب ظاهرة ناشئة من الإسلام ذاته، ويقولون صراحة: إن الإسلام يدعو إلى الإرهاب ويستخدمون فى ذلك كل أساليب المغالطة، فيقولون مثلا: إن الجهاد الذى يدعو الإسلام أنصاره إليه معناه أن المسلمين فى حالة حرب دائمة ضد غير المسلمين، وأن قتل غير المسلمين واجب دينى على كل مسلم يثاب عليه فى الآخرة، ودليلهم على ذلك وعود الإسلام للشهداء بالجنة والحياة عند ربهم يرزقون. ويتجاهلون قول علماء الإسلام من أن الجهاد حرب دفاعية وليس حربا هجومية، هى حرب المسلمين على من يحاربهم أو يعتدى على أرضهم أو أموالهم أو أعراضهم، وفى الإسلام: من مات دون ماله فهو شهيد، ومن مات دون أرضه فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهوشهيد. والإسلام يأمر المسلمين بالاَّ يبدءوا بالعدوان ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة - ١٩٠]. وليس هناك أمر واضح قاطع مثل هذا الأمر الإلهى. وفى نفس الوقت فإن الإسلام يأمر المؤمنين به أن يتوقفوا عن القتال فى اللحظة التى يعلن فيها أعداؤهم السلام ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الانفال - ٦١].

والحقيقة أن الربط بين الإسلام والإرهاب ومقاومة الشعب الفلسطينى وتقديمها فى الغرب على أنها وجوه متعددة لحقيقة واحدة هى الإسلام، فيه مغالطة مقصودة، وإن كان هناك أحيانا من يعترف بالحقيقة كما فعلت صحيفة الاوبزرفر البريطانية مثلا فى عدد ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٢ حين نشرت مقالا بعنوان «الغرب لم يعد بريئًا» قالت فيه: إن على الدول الغربية أن تعترف بأنه لن يكون هناك حل للتطرف الإسلامى غير تسوية المشكلة الفلسطينية، وينبغى أن يصدق العالم الغربى أن الديون والفقر وعدم المساواة جانب من الأرض الخصبة التى تثمر الغضب واليأس، وكذلك ينبغى أن تتخلى دول الغرب عن تلك النظرة المتعالية تجاه المسلمين، وعن القول بأن العالم الإسلامى هو المسئول وحده عن التخلف الذى يعيش فيه، ويستحق العقاب إذا استمر فى مقاومة العولمة. وأخيرًا على دول الغرب - وعلى رأسها الولايات المتحدة - التوقف عن الكذب والإدعاء بأن الحرب على العالم الإسلامى التى يقتلون فيها المسلمين هى حرب من أجل السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان بينما هى حرب من أجل البترول. وعلى الغرب أن

يسعى إلى تحقيق مصالحه بطريقة عادلة ومستنيرة. وأنه لن يكون هناك ضمان لعدم تكرار حوادث الإرهاب غير التعامل مع العالم الإسلامى بالعدل.

وعلى الجانب الآخر نجد مفكرًا استراتيجيًا أمريكيًا مثل بريجنسكى يقول فى نيويورك تايمز (فى أول سبتمبر ٢٠٠٢): «هناك جهات لها مصالح استراتيجية تروج للعداء بين أمريكا والعرب..» ويشير إلى رئيس وزراء إسرائيل بالاسم ضمن هؤلاء الأعداء. كذلك فإن رئيس لجنة «الإسلاموفوبيا» فى بريطانيا البروفيسور جوردون كونواى نائب رئيس جامعة ساسكس يعلن تقرير اللجنة بإدانة تفشى ظاهرة الخوف من الإسلام فى بريطانيا والغرب، وانتشار الصورة النمطية فى الإعلام عن الإسلام والمسلمين وربطها دائما بالإرهاب والتخلف والبربرية.

وإذا كنا جادين فى إيجاد طريق للمصالحة بين الغرب والإسلام، واقناع الغرب بأن الإسلام دين قبول وحوار وتعاون مع المختلفين معه، فإن علينا أن ندرك أن ذلك لا يكون بأن يغير الغرب أفكاره ومواقفه فقط، ولكن علينا أن نخطو نحن أيضًا نحو الغرب خطوة؛ أولا بإدراك طبيعة هذا العصر والاندماج فيه دون تفريط فى ثوابت العقيدة الإسلامية ثم بإعادة النظر فى التفسيرات الرجعية للإسلام، ورفض الجماعات التى تدعى أنها سدنة الإسلام وأن لهم وحدهم حق الاحتكار للحقيقة وما يخالفها باطل. فلابد أن يعود الإسلام بسيطا بدون كهنة أو وسطاء، ولابد من أن يقف جميع المسلمين صفا واحدا ضد الذين يريدون إشعال حرب دينية بأية صورة من الصور.

وأخيرًا فلقد ترددت كثيرا فى ذكر الاتهامات والسباب التى وُجِّهَت للدين الإسلامى، وللقرآن الكريم، وللرسول ﷺ، ولكنى وجدت أن هذه الاتهامات ليست جديدة، فقد وجهت إلى الرسول ﷺ ذاته والوحى ينزل، وقد خلدها القرآن فى آيات نتلوها ونتعبد بها، لندرك أن العداء للإسلام قديم وسوف يستمر إلى يوم القيامة ولن ينتهى أبدًا، وعلى المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم وعن دينهم إلى يوم الدين. ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان - ٨].

﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص - ٤].

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الأحقاف ٧ - ٨].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل - ١٠٣].

وفى المحاكم حين تنظر قضايا السب والقذف لابد أن يذكر فى الاتهام وفى الحكم ألفاظ السب والقذف حتى يتبين إن كانت تدخل فى نطاق مفهوم هذه الجريمة أو لا تدخل، لذلك ذكرت بعض ما يوجه إلى الإسلام والقرآن والرسول من سب وقذف وشعرت بالحرج فى كتابة الباقى، وتعالى الله عما يصفون.

ومن الضرورى أن أشير إلى أن هذا الكتاب فى الأصل مجموعة مقالات نشرت فى مجلة أكتوبر، وقد يجد القارئ تكرارًا فى بعض المواضع، ولكنه تكرار مقصود لتذكير القارئ، أو للتدليل على تواتر الاتهامات وامتلاء الكتب والصحف ومراكز الأبحاث فى الغرب بهذه الأقوال والأفكار.

وفى الحقيقة فإن هذا الكتاب ليس إلا «ملف معلومات» لكل من يريد أن يعرف «ماذا يقولون عن الإسلام والمسلمين».. وما فيه ليس إلا نماذج وأمثلة، أما حصر وتوثيق كل ما قيل ويقال فإنه يحتاج إلى عشرات الكتب.

وأدعو الله أن يكون هذا الكتاب جرس إنذار ينبه الغافلين، ويلزم المنكرين للحقيقة بالاعتراف بالواقع، فيواجهوا هذه الحرب التى لا يعرف أحد متى وكيف تنتهى؟ ولكى يُغَيِّرَ المسلمون من أنفسهم ويعملوا بما علمهم الله من أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وإن كان الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر - ٩] فإن على المسلمين أن يفتحوا عيونهم لما يدور فى العالم حولهم، ليقولوا للعالم ما هى حقيقة الإسلام وليواجهوا أعداءه.

والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

رجب البنا

القاهرة - يناير ٢٠٠٣